ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الهُوية الدينية في الأدب الشعبي
سيرة الظاهر بيبرس نموذجًا

د. سماح عبد المنعم السلاوي
دكتوراه تاريخ إسلامي وسيط
جامعة عين شمس
جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

ينظر بعض الباحثين ودارسي التاريخ للأدب الشعبي بكل فروعه نظرة دونية وأنه لا يمكن الاعتماد عليه في دراسة وتفسير الأحداث التاريخية، فهم يعتبرونه مجرد قصص وأساطير وخيالات فيها الإثارة والشغف والتسلية يبدع فيها الراوي ليجذب إليه الجماهير المستمعون له. ولكن الأدب الشعبي يعتبر أكثر التصاقًا بالمواطن؛ لأنه ينبع من وجدان وانفعالات الشعب ذاته بشكل تلقائي عفوي ويحمل في طياته مفاهيم وأفكار العامة البسطاء. وعندما تعرض الوطن العربي لغزو فكرى وثقافي وأصبح عدو قوى يهدد هويتنا وحضارتنا وتراثنا، ومع حالة الركود والخمول الذي أصاب الحضارة الإسلامية وهنا يحاول الباحث تذكير المواطن العربي والمصري بهويته الدينية من خلال إلقاء الضوء على الدلائل الدينية المتوغلة في سيرة الظاهر بيبرس، ولإثبات العقيدة الإيمانية للشعب المصري، واحترامه لقيمها الثقافية والحضارية، وكذلك إبراز الشعائر الإسلامية، وارتباطه باللغة العربية، والتاريخ المشترك للدول العربية منها مصر والشام وبيت المقدس وغيرها. وظهر ذلك واضحًا في التسبيح والدعاء والذكر وأشعار المدح النبوي والزجل وأخلاقيات الإسلام في الحرب وتلاوة القرآن الكريم والتصدق على الفقراء والمساكين وإضفاء التصوف على الشخصيات التاريخية المحببة في السيرة. وقد اتبعت في الدراسة المنهج التحليلي والوصفي مع المقارنة بالمصادر التاريخية المعاصرة. وانتهت الدراسة بعدة نتائج منها: أن السيرة الشعبية تكاد تكون رؤية وجدانية للتاريخ وأحداثه وأبطاله ولا تنتمى لعصر بعينه إنما هو نتاج مستمر في إطار فنى تلقائي، تعبر السيرة عن التدين الشعبي في ذلك الوقت وركائز الهوية الإسلامية لدى المجتمع، وبالتالي فالسيرة الشعبية لم تقصد التحقيق والتدقيق في الحدث التاريخي بل اهتمت بالمغزى فهي تشتمل على حقائق وكذلك على خرافات أو خيال محض فيقوم الراوي بتنظيم الأشخاص في سلك واحد رغم تباعد السنوات بينهم فهو لا ينظر إلى فوارق الزمان والمكان، كما نجد في السيرة الاعتماد على الأولياء الصالحين والجن والخرافات المنسوجة حول الكائنات ذات القوة الخارقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ فبراير ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ فبراير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الهوية الإسلامية، أخلاقيات الإسلام، التدين الشعبي، التصوف، صلاح الدين الأيوبي، الكامل الأيوبي، بيت المقدس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0054927

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سماح عبد المنعم السلاوي. "الهوية الدينية في الأدب الشعبي: سيرة الظاهر بيبرس نموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الثالث والأربعون؛ مارس ٢٠١٩. ص ٢٠٦ – ٢٢٤.

مُقدِّمَةُ

منذ القرن التاسع عشر الميلادي وبدأ اهتمام المفكرين والمؤرخين المسلمين والعرب بموضوع الهوية العربية والإسلامية، ويرجع ذلك إلى سببين؛ أولهما: خطر الغزو الفكري والثقافي الذي اجتاح العالم العربي والإسلامي وأصبح عدو قوى يهدد هويتنا وحضارتنا وتراثنا، وثانيهما: الرغبة في تغيير وإصلاح الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة الإسلامية، مما يساعد على التصدي لخطر تدمير هويتنا. وبما أننا نسعى للإصلاح والتجديد والنهوض فلابد أن يرتبط هذا الإصلاح بهوية ما، وبما أننا مسلمون أصحاب حضارة وثقافة راقية، فلابد أن تكون الهوية الإسلامية هي أساس التغيير والنهضة ومرجعًا ومصدرًا للإصلاح المنشود. وعندما أصاب الركود والخمول الحضارة الإسلامية، انفتح الباب لتيارات غريبة على حضارتنا وعلى مجتمعنا الإسلامي، واصطدمت هذه التيارات

بالحضارة الإسلامية واتهمتها بالرجعية في التفكير والارتباط بالماضي وبعدم صلاحيتها لمواكبة النهضة الحديثة والتطور المستمر الحالي وزادت في اتهاماتها بأن الدين الإسلامي ذاته لا يصلح لأمور السياسة والحكم أو يكون مرجعًا ومنهجًا للنهضة والتطور الحضاري للأمة الإسلامية.

ومن هذه التيارات الغريبة التي كانت تتصارع فيما بينها لتثبت أن أحدها أفضل وأقوى من الآخر؛

أولاً: التيار الإسلامي: رائد النهضة والتغيير في العصر الحديث، والذى مثله الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده، فكان الشيخ الأفغاني يؤمن بأن "الدين هو قوام الأمم، وبه علاجها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها، وفى عقائده عماد لبناء هيئتها الاجتماعية، وهو أساس محكم لمدنيتها، وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان"،[1] أما الشيخ محمد عبده فلم يخرج فكره عن هذا الإطار، إذ يقول: "إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنه، وإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا، وإذا كان الدين كافيًا لتهذيب الأخلاق وإصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهل الثقة فيه ما ليس في غيره وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره ؟!"[2]، ولعل أصولية الإمام إذا ما طرحت مع أفكاره الأخرى نجد أنها لم تكن أصولية راديكالية تضاهي أصحاب الأفكار المغلقة، بل يمكن القول: إنها كانت سلفية معتدلة تسعى إلى الحفاظ على الموروث، ليس من خلال إعادة إنتاجه، ولكن عن طريق تجديده لمواءمة الواقع ومستجداته، والانفتاح على النظر الغربي للوجود، فالأصولية عند الإمام أصولية منهجية تستدعي الوعي، وتعبر عن حاجتنا للأمن وللثقة بالذات في حقل الأمم القوية.[3]

وقد تخرج من مدرسة الأفغاني ومحمد عبده عدد كبير من المفكرين والمصلحين العظماء ورغم اختلافهم في الأساليب المتبعة لتحقيق النهضة الإسلامية الجديدة إلا أنهم متفقون معًا على أن الدين هو أساس الإصلاح وأن مشروع التغيير والنهضة الإسلامية هو مشروع ذات هوية ومرجعية إسلامية خالصة.

ثانيًا: التيار العلماني القومي: فكان يهدف إلى تغيير منهج ومسار النهضة الحضارية العربية والإسلامية وجعل هويتها عربية علمانية وبالتالي جعل الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة، ووحدة التاريخ، أما الدين فلا يُعَدّ أصلاً من المقومات للهوية العربية.[4]

ثالثًا: التيار العلماني الوطني: وقد دعا إليه أصحابه إلى إقامة دولة علمانية على غرار الدول الأوربية وهو في الوقت نفسه يحمل العداء الواضح للتيار الإسلامي وللمشروع الإصلاحي إلا أنهم أكثر تعصبًا وتشددًا من العلمانيين القوميين.[5]

رابعًا: دعاة التغريب: ودعا أصحابه إلى الإلحاق بركب الحضارة الغربية والسير على نهجها في كل صغيرة وكبيرة والدعوة لنبذ ماضي الأمة وقطع كل الصلات به، وفى ذلك يقول طه حسين: "يجب أن نذهب مذهبها ونسير سيرتها في التشريع"[6] وكان يقصد الحضارة الأوربية.

وهذا يعنى أن هوية النهضة والإصلاح الإسلامي يجب أن تكون مرجعيتها غربية أوربية خالصة وليس لها صلة بهويتنا العربية والإسلامية وتاريخنا وتراثنا وحضارتنا. وهكذا حدثنا التاريخ الماضي والمعاصر عن الكثير من الأحداث التي مرت بالمجتمع الإسلامي وكانت تهدف إلى طمس هويته وتشتيت انتمائه. ومن هنا كانت أهمية الدور الذي ينهض به مثقفو الأمة الإسلامية في تنمية الوعي بحقيقة الهوية الإسلامية ولابد من صحوة إسلامية قوية لنؤكد على هويتنا الإسلامية ونجعلها مرجعً وأساسًا للنهوض بأمتنا وحضارتنا.

١-مفهوم الهوية الإسلامية

الإسلام يصبغ الإنسان بصبغة خاصة في عقيدته وفكره ومشاعره وتصوراته وآماله وأهدافه وسلوكه وأعماله، وفي المجتمعات الإسلامية يعد الدين الإسلامي الهوية الأساسية والرسمية لها، ومحور حياة المجتمع، من خلالها يتفاعل أفراد المجتمع، وحينما يضعف التمسك بالدين والالتزام يصبح مجتمعًا فاقد للهوية، وبحكم أننا مسلمون ولأنه ليس من الممكن أن نختار غير الإسلام هوية، فنحن حينما ابتغينا الإسلام دينًا، فقد ارتضيناه هوية، وبالتالي فهوية المسلم تتمثل في حفاظه على دينه، واعتزازه به

وتمسكه بتعاليمه والتزامه بمنهجه في صغير الأمور وكبيرها. وقد عرف أحد الباحثين الهوية بأنها عبارة عن تراكم المعارف والثقافات، والتجارب والصراعات، والأفكار والمؤلفات والكتابات، كل هذا يشكل المرجعية الأساسية للشعوب. بخلاف الهوية الإسلامية التي تتميز بمرجعيتها الربانية الثابتة والصحيحة، والمحفوظة أبدًا، والتي تتمثل في الوحي بمصدريه، وبهذا تميزت هذه الأمة عن سائر الأمم[٧]، أما عبد الكريم بكار فيرى أن الهوية هي مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص والترميزات التي تجعل أمة ما تشعر بمغايرتها للأمم الأخرى، والإسلام بعقائده وأركانه وأحكامه يشكل أساس الهوية الإسلامية. وللروافد التاريخية والجغرافية واللغوية والثقافية المختلفة دور مهم في بناء الهوية[٨]، وبالتالي يمكن تقديم تفسير شامل للهوية الإسلامية، فإنها تعنى: الإيمان بعقيدة هذه الأمة، والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الثقافية والحضارية، وإبراز الشعائر الإسلامية والاعتزاز والتمسك بها، والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية والجماعية، والقيام بحق الرسالة وواجب البلاغ والشهادة، وهى أيضًا محصلة ونتاج التجربة التاريخية لأمة من الأمم وهى تحاول إثبات نجاحها في الحياة.[٩]

٢-ركائز وأساسيات الهوية الإسلامية

- العقيدة: ونقصد بها الدين فكرًا وشريعة وعقيدة وسلوكًا، فالهوية الإسلامية في المقام الأول انتماء للعقيدة، وهى الإيمان الجازم بالله، بألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره، وذلك مصداقًا لقوله تعالى "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ".[١٠]
- اللغة: اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، ولسان الإسلام، وهذا الارتباط جعلها وثيقة الصلة بالهوية الإسلامية، لأنها لغة فكر وعقيدة، ولا يفهم الدين ولا تدرك مقاصده إلا عن طريقها، فهي طريق فهم القرآن والسنة.
- التراث الثقافي للأمة الإسلامية : ويشمل علوم المجتمع وآدابه وقيمه ولغته التي تعبر عنه، والتراث يعني كل مفهوم يتعلق بتاريخ الإنسان وتجاربه في الماضي والحاضر وما يتطلعه للمستقبل، أما التراث الحضاري والثقافي فهي الممتلكات والكنوز التي تركها الأولون، حيث هي السند المادي واللاّمادي للأمم والشعوب ومن خلالها تستمدّ جذورها وأصالتها، ونحن المسلمون نمتلك تراثًا ثقافيًا وحضاريًا متميزًا ومرتبطًا بالدين الإسلامي وبالتالي نستطيع أن نسير بكل قوة في طريق التطور الحضاري للحفاظ على هويتنا وأصالتنا الإسلامية العريقة.
- التاريخ المشترك: فالأمة الإسلامية تمتلك نفس التاريخ بكل مراحله وأحداثه، وجميع المسلمين قد ساهموا فيه سواء كانوا عربًا أم من جنسيات أخرى، فلكل منهم أدوارًا رئيسة في مجريات الأحداث، وكان للجميع أدوار مشرقة وفعالة في حياة الأمة الإسلامية.

ونتيجة لتعرض الأمة الإسلامية لمحاولات عديدة لطمس هويتها الإسلامية، متمثلة في عدم الالتزام بالعقيدة أو بالاعتماد على لغات أخرى غير اللغة العربية أو بالاندماج داخل الثقافة الغربية الحديثة، وقلب نظام التعليم الإسلامي وإقامته على أساس الفصل بين الدين والحياة، فكانت النتيجة ظهور جيل يشعر بالغربة الذاتية ولا يملك هوية ثابتة تساعده في تحقيق ذاته.

ولطالما كان تراث الأمم ركيزة أساسية من ركائز هويتها الثقافية، وعنوان اعتزازها بذاتيتها الحضارية في تاريخها وحاضرها؛ ولطالما كان التراث الثقافي للأمم منبعا للإلهام ومصدرًا حيويًا للإبداع المعاصر ينهل منه فنانوها وأدباؤها وشعراؤها، كما مفكروها وفلاسفتها لتأخذ الإبداعات الجديدة موقعها في خارطة التراث الثقافي، وتتحول هي ذاتها تراثًا يربط حاضر الأمة بماضيها، ويعزز حضورها في الساحة الثقافية العالمية. وليس التراث الثقافي معالم وصروحا وآثارًا فحسب، بل هو أيضا كل ما يؤثر عن أمة من تعبير غير مادي غير ملموس، من فولكلور، وأغان وموسيقى شعبية وحكايات وأمثال وأدب الشعبي، ومعارف تقليدية تتوارثها الأمة عبر الأجيال، والطقوس والاحتفالات، وهناك تراث مادى طبيعي يشمل المعالم الطبيعية المؤلفة من التشكيلات الفيزيائية أو البيولوجية أو مجموعة من هذه التشكيلات التي لها قيمة جمالية أو علمية ومنها المحميات الطبيعية والتشكيلات الرسوبية[١١]، أما التراث المادي الثقافي، فهو تلك الصروح المعمارية المتعددة والمختلفة، وتلك البقايا المادية من المصوغات الذهبية والفضية والذهبية مثل الأواني والحلي، والملابس، ووثائق، وكتابات جدارية وغيرها والتي مرت عليها فترة زمنية

معينة وتنسب إلى عصور وحضارات عريقة قديمة[١٢]؛ إذْ كلها تعبّر عن روحها، ونبض حياتها وثقافتها، ولا شكّ أن التراث يمثّل الذّاكرة الحيّة للفرد وللمجتمع، ويمثّل بالتالي هويّةً يتعرّف بها الناس على شعْبٍ من الشعوب؛ كما أن التراث بقيمه الثقافية، والاجتماعية يكون مصدرًا تربويًا، وعلميًا، وفنيًا، وثقافيًا، واجتماعيًا.

ومن هنا يأتي أهمية التواصل مع التراث الشعبي الذي يمثل منظومة القيم الإيجابية والسلبية لكل جماعة ولا يمكن فهم ما وصلنا إليه من حال إلا من خلال الدراسات الواعية لتراثنا واستخلاص القيم التي ترسخت في وجدان الشعوب ومازال تأثيرها ينعكس على المستجدات والتحديات التي تتعرض لها الشعوب ويدخل في ذلك تقبل قيم جديدة ومفاهيم مستحدثة أو رفضها، ولذا جاء التفكير في دور التراث في تعزيز وتقوية الهوية الإسلامية وتمثل ذلك في السيرة الشعبية وخاصة سيرة الظاهر بيبرس المسماة بالسيرة الظاهرية.

٣-التعريف بسيرة الظاهر بيبرس

السيرة الشعبية جزء من الموروث الشعبي الذي يشكل عالماً رحبًا من ذاكرة الأمم، ويتكون من عناصر متشابكة من الموروث الحضاري والبقايا السلوكية والأقوال التي رسخت في عقول ونفوس البشر منذ فترات طويلة كما يضم البقايا الأسطورية والفولكلور وفقًا لبيئته سواء كان باللغة العربية الفصحى أو باللغة العامية وبالتالي فالتراث الشعبي إبداع عفوي أصيل يحمل ملامح الشعب ويحفظ سماته ويؤكد عراقته ويعبر عن همومه وأحلامه وآماله على مختلف مستوياتهم.

أما عن السيرة الظاهرية فتنسب إلي السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري، الذي حكم سلطنة المماليك خلال الفترة الممتدة فيما بين عامي ٦٥٨-٦٧٦هـ (١٢٦٠-١٢٧٧م) وقد وصل إلينا عدد من السير الرسمية التي دونها مؤرخون كانوا على صلة مباشرة بالظاهر بيبرس: الأولى الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لمحيي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)[١٣]، الثانية حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية لشافع بن علي الكاتب (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م)[١٤]، وتاريخ الملك الظاهر لعز الدين ابن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)[١٥] أما السيرة الظاهرية التي هي مصدر للصورة الشعبية لموضوعنا، فملحمة شعبية ضخمة، دارت حول شخصية السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، أو تاريخ الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة (السلطان محمود الظاهر بيبرس) ملك مصر والشام، وأعماله البطولية التي قام بها ذوداً عن الإسلام وتصديًا لأعدائه من الصليبيين والمغول.

وهذه الملحمة في الأصل رواية شفاهية يختلط فيها التاريخ بالخيال، ولا نعلم على وجه التحديد تاريخ تدوينها، لكن من الواضح من خلال مطالعة السيرة أنها دونت في القاهرة في العصر المملوكي وتطورت ونمت عبر السنين إلي أن أخذت شكلها النهائي في بدايات الحكم العثماني لمصر على الرغم من أن غالبية أحداث السيرة تجري في مصر، وأبطالها مصريون يتكلمون باللهجة المصرية ويستخدمون الأمثال الشعبية المصرية، إلا أن أحداثها مع ذلك تغطي رقعة واسعة من العالم الإسلامي وشمال البحر المتوسط.

ويري الباحث الفرنسي فرانسيس جينل أن السيرة الشعبية للظاهر بيبرس قد بدأت في الظهور في القرن السادس عشر الميلادي، ومع انتشار المقاهي على نطاق واسع في القرن الثامن عشر الميلادي، صارت ملجأ للحكواتية سواء في مصر أو الشام ومن ثم صار لدينا عدة روافد لهذه السيرة الشعبية: الرافد الأول دمشقي والرافد الثاني حلبي والرافد الثالث قاهري ويؤكد جينل على أن الراويات الثلاث لا تختلف عن بعضها كثيرًا من حيث القصة أو الحبكة لكن هناك بالطبع اختلافات طفيفة من جراء اختلاف جغرافية المكان.[١٦] على أيه حال فالمساحة الزمنية للسيرة امتدت إلى نحو قرنين ونصف من الزمان تعاقب خلالها مالا يقل عن ٤٥ سلطانًا.

وما يعنينا هنا الرواية المصرية التي طبعت في خمسين جزءًا، وزعت على خمسة مجلدات، كل منها يحوي ستمائة صفحة تقريبا، وهي في الأصل تدوين لرواية شفاهية مليئة بالأشعار المرتجلة والكلمات العامية، وهى الطبعة التي اعتمدت عليها في هذا البحث[١٧] وخاصةً المجلد الأول والثاني اللذان يحتويان على شخصيات محورية أساسية في السيرة، وكان لوجودهم في السيرة أو في الواقع دورًا هامًا ومؤثرًا في حياة المجتمع المصري، ومعبرًا عن اهتمام المصريون بالهوية الإسلامية سواء من خلال أفعالهم ودفاعهم عن الدين الإسلامي أو من خلال أقوالهم من أدعية وتسابيح وأشعار تتناول إيمانهم بالله، والتوكل عليه وحبهم للرسول وآل البيت وإيمانهم بالقدر، وكل هذا من ركائز وأساسيات الهوية الإسلامية الخالصة.

٤-دلائل الهوية الإسلامية في السيرة الظاهرية: التسبيح والدعاء والذكر في السيرة الظاهرية

تبدأ السيرة بعبارات دينية تقول: "الحمد لله الحق المبين. المحسن البر الأمين. السلام الذي سلم عن العقب والزوجة والبنين. الذي آمن به كل شيء... سبحانه وتعالى وأشكره وأتوب إليه واستغفره من كل ذنب ظاهر أو كمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين. شهادة تنجى قائلها في القيامة يوم الدين وأشهد أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبده وسوله وحبيبه وخليله الصادق الوعد الأمين".[١٨] ثم نسمع الخليفة المقتدر عندما قبض عليه هلاون اللعين، وقيده بالأغلال وادخله السجن يقول: "لا حول ولا قوة بالله العلى العظيم، ثم بكى واشتكى وانشد يستغيث بالله الواحد الأحد ويستعين بالخالق وبالرسول محمد:

أسلمت أمرى لرب السماء
قدير على تيسير كل عسير
رب المشارق والمغارب كلها
رازق الأنام وصنعه التدبير
به استعنت حقًا على العدا
وجعلته خبير ونعم البصير
إلهى توسلن إليك بأحمدا
تكن لي نصيرًا يا أعز نصير
وأطلق سراحي مما حلى بي
ونجنى من حرقتي وزفير
وجد لي بالخلاص على رغم العدا
فقد كان منك الوعد والتقدير
ثم الصلاة على الحبيب محمدًا
نبي الهدى والسراج المنير[١٩]

وعندما تصدقت السيدة فاطمة شجر الدر بعقدها الثمين لأحد الفقراء وخافت أن تخبر والدها عندما طلب منها العقد فجزاءً لعملها الحسن نالت خير مما قدمت، حيث ظهر لها فجأة ذلك الفقير وطمأنها وقال لها: "قد عاملت ربك في الوسع ولا وهو قد عاملك في الضيق فافتحى الربعة ترين العجب..... وأطلبي من والدك أرض مصر "واختفى فجأة كأنه ولى من عباد الله الصالحين رأته في المنام، وعندما علم والدها بذلك أدرك أنها" محبوبة لله تعالى ولأوليائه الصالحين، تمنى تعطى يا فاطمة" فقدم لها مصر، فأنشدت تحمد ربها على كرمه العظيم فقالت:

سأحمد ربى في كل ساعة
على نعمة لم أقدر أمضيها
قد مَنَّ علىَّ الكريم بفضله
وبلغني من الدنيا أمانيها
وعزني رب الأنام بعزه
وأعطاني معاطى لم أقدر أكافيها
فله الحمد شكرًا ومنة
على وهبه مصر أياى وما فيها[٢٠]

ومن مظاهر الحب للنبي الكريم وأهله؛ اختيار الراوي الشعبي لبعض الأسماء الإسلامية المتداولة والمحببة لبعض الشخصيات التي تتصف بسمات طيبة كريمة والتدين، أما الشخصيات الشريرة تختار لهم السيرة أسماء قبيحة لتعبر عن أصحابها، فتحكى السيرة أن الخليفة العباسي لم يكن ينجب بنات وسأل الله تعالى أن يرزقه ابنة جميلة فأسماها "فاطمة"[٢١] تيمنًا بالسيدة فاطمة الزهراء وحبًا في آل البيت، فمن المعروف أن هذا الاسم له دلالة دينية وأهمية خاصة وقدر من التبجيل والاحترام لدى المصريين لأنها ابنة النبي صلى الله عليه وسلم. أما الظاهر بيبرس فقد أسماه الراوي في السيرة باسم محمود العجمى[٢٢] وهو أحد أسماء النبي الكريم كما يعلمه العامة. وفى ذلك قول حسان بن ثابت رضي الله عنه في مدحه صلى الله عليه وسلم: وشق له من اسمه ليجله ..... فذو العرش محمود وهذا محمدُ، وقد ذكر ابن القيم تعليلاً جميلاً لتسميته بهذا الاسم، فقال: تسميته صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم لِما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد، فإنه صلى الله عليه وسلم محمود عند الله محمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض بما ملأ الأرض من الهدى والإيمان والعلم النافع والصلاح.[٢٣]

كما نجد في السيرة أشعارًا في مدح رسول الله والاستغاثة به، فحينما ذهبت السيدة فاطمة شجر الدر إلى الحج فدخلت المدينة المنورة وزارت وسلمت وصلت ودعت نظمت أبياتًا شعرية في حب الرسول وطلب شفاعته فقالت:

ألا يا رسول الله يا خير مرسل
كن شفيعًا لي يا أجل الورى قدرًا
رعا الله أيامًا تقضت بطيئة
ليال ومالي لا علمت له قدرا
سألت إلهى قبل موتى نظرة
إلى طيبة العجبا والقبة الخضرا
وأقول يا رسول الله جئتك قاصدًا

يا خير مسؤل ومن يمشى على الغبرا
ويا من جار الغزال إذا أتت
ويا من له الأقدام قد غاص بالصخرا
اجرنى اجرنى يا ملاذى ومسندى
فأنت ضميرى من وقفة عثرا[٢٤]

ثم تقدم الوزير الاغا شاهين وقبل الأرض بين يدى رسول الله وشكا إليه حاله ودعا وطلب وتوسل بالرسول وسأل الله القبول والإحسان وتعلق بأذيال الحجرة الشريفة وأنشد يقول صلوا على طه الرسول:

ألا يا رسول الله جئتك قاصدًا
أرجو رضاك وأحتمى بحماك
والله يا خير الخلائق أن لي
قلبًا مشوقًا لا يروم سواك
وبحق جاهك أنني بك مغرمًا
والله يعلم أنني أهواك
أنت الذي لولاك ما خلق امرأ
كلا ولا خلق الورى لولاك
أنت الذي من ورك البدر أكتسى
والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذي لما رفعت إلى السما
بك قد سمت وتزينت بسراك
أنت الذي ناداك ربك مرحبًا
ولقد دعاك لقربه وحباك
أنت الذي فينا سألت شفاعة
ناداك ربك لم تكن لسواك
فاجعل قراى شفاعة لي في غد
فعسى أكن في الحشر تحت لواك
صلى عليك الله يا علم الهدى
ما حن مشتاق إلى مثواك
وعلى صحابتك الكرام جميعهم
والتابعين وكل من والاك[٢٥]

٥-أخلاقيات الإسلام في السيرة الظاهرية

٥/١-الرحمة في الحرب في السيرة

تروى السيرة أن صلاح الدين الأيوبي عندما كان في بغداد وبعد أن أعاد الخليفة إلى عرشه وهزم المغول وطردهم من المدينة ظل مع عشيرته بأمر من الخليفة العباسي، وأثناء تلك الفترة عاد المغول مرة أخرى فاستعد لهم صلاح الدين وجنوده مرة أخرى وحقق عليهم نصرًا مبينًا وتم إعدام ملكهم منكتم وأسر ولديه، وهما عبد يزيد وهلاوون اللذين استنجدا بصلاح الدين وصاحوا "نحن في عزة الإمام يوسف صلاح الدين البطل الهمام" فنهض على الفور بكل شهامة ومروءة وقبل الأرض بين يدى الخليفة المقتدر، وتشفع فيهما فطلب من الخليفة ألا يقتلهما مثل أبيهما بل يتركهما على أن يفديا نفسيهما بجزية سنوية، "لأن قتلهما لن يفيد الإسلام وأخذ مالهم أحب مما نسقيهم كأس الحمام" فوافق الخليفة على ذلك وفوضه في الأمر، فأمرهم صلاح الدين بأن يقدما "عشرة خزائن من المال وكل خزانة مائة ألف دينار"، غير أن الخليفة قرر بقاءهم في السجن حتى يأتي المال، لكن صلاح الدين قرر أن يضمنهم وسأل الخليفة أن يطلق سراحهما، فإن لم يرسلا المال سار إليهم في عقر دارهم وفعل بهم ما فعله في بغداد، فتركهما، وردت إليهما خيولهما وأسلحتهما، وما هي إلا أيام احتفل فيها الخليفة شعبان المقتدر بالنصر، وكرم فيها صلاح الدين والأيوبية الأكراد حتى أقبل رسل هلاوون وكلب يزيد بما قطع عليهم من الأموال عشرة خزائن مال وعشرين ألف دينار خراج عام، وعشرة آلاف لصلاح الدين شكرا على مروءته، غير الخيل والبغال والجوهر.[٢٦]

ورغم أن صلاح الدين لم يقاتل المغول في الواقع إلا أن ذلك الموقف يعبر عن مدى تمسكه بمبادئ الشريعة الإسلامية السمحة عند تحديد مصير هؤلاء الأسرى حيث كان من حق الحاكم خمسة أشياء وهى: القتل، الفداء، الاسترقاق، المن، الجزية أو الإسلام[٢٧]، وهنا اختار صلاح الدين دفع الفدية، وهى أيسر وأفضل الاختيارات للعدو الأسير، كما يتبين لنا أن هذه الأفعال وأمثالها من المروءة والشجاعة والعفو عند المقدرة من أخلاقيات المسلم، وأن العدل مع الناس مسلمين أو غير مسلمين معلم بارز من معالم ديننا وهويتنا الإسلامية والتي برزت في ميدان القتال وهذا ما انطبع في الذاكرة الشعبية وظهر جليًا في السيرة الشعبية.

وتروى لنا المصادر التاريخية المعاصرة أن صلاح الدين تميز عن غيره من معاصريه بأمر التسامح في فترة الصراع بين الشرق والغرب ونقصد بها فترة الحروب الصليبية وتحرير الأرض العربية، وقد بلغ القمة في تصرفاته مع الصليبيين بعد انتصار حطين وفتح القدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، حينها قال أحد المؤرخين الصليبيين: "لا يجوز لي أن أغفل عنك عملا من أعمال الرحمة التي قام بها صلاح الدين فقد حدث أثناء حصار القدس – حين غادر بلدوين أبلين المملكة – أن عهد بابنه الصغير المسمى توماسين إلى رعاية أخيه باليان. كما كان هناك طفل صغير اسمه جيلمان وهو ابن ريموند صاحب جبيل، وكان الطفلان في القدس، فلما

سمع أبوهما أن الصلاح قائم على حصار المدينة بعثا إليه يستعطفانه على الصغيرين وأن يسمح لهما بالمجيء إليهما، فأرسل إلي باليان في القدس يطلب الطفلين لإرسالهما إليه فعطف عليهما وأرسلهما إلي أبيهما".[٢٨] ورغم ما فعله الصليبيون الأوائل حينما دخلوا القدس في الحملة الصليبية الأولى وعاثوا فيها فسادًا وسفكوا الدماء ولم يفرقوا بين مسلم أو مسيحي أو يهودي ولا بين رجل دين أو رجل الشارع وصارت شوارع المدينة غاصة بالجثث والدمار بحورًا حتى تفاخر المؤرخون الصليبيون بذلك، إلا أن صلاح الدين ضرب مثلا في كرم الأخلاق والطيبة والرحمة ولو فعل مثل ما فعلوه لن يُلام على فعله ولكن شريعة الإسلام تدعونا دائمًا للرحمة والشفقة على الآخرين وقت الأزمات.

٢/٥-التصدق على الفقراء والمساكين

الصدقة من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله -عز وجل-؛ قال الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٢٩]، والله يربى الصدقات ويضاعف لأصحابها الثواب، فنسمع الراوي يقول عن السيدة فاطمة "شجر الدر "أنها كانت كثيرة التصدق على الفقراء والمحتاجين بأموال كثيرة وتغدق عليهم بلا حساب عندما كانت فتاة صغيرة ثم سيدة ناضجة وزوجة، فذات يوم" كانت السيدة فاطمة جالسة في شباك قصرها وكان تحت القصر رجل سائل، وهو يقول "هنيئًا إلى فاعل الخير، تصدقوا ترزقوا.... قالت: خير ما عندي هذا العقد ثم انتزعت العقد من عنقها ورمته إلى السائل"، فكان جزاء ذلك أن أعطاها الله أرض مصر مكافأة لها عن حبها للفقراء ثم زواجها من الملك الصالح نجم الدين أيوب.[٣٠]

كما كان الظاهر بيبرس يهب الأموال للفقراء والمحتاجين ويحكى الراوي أن محمود "بيبرس" بعد أن شفاه الله من مرضه الطويل العصيب اتجه إلى جامع سيدى عبد الله الأموي فصلى العصر وقرأ القرآن الكريم وكان له صوت رخيم فأحبه الناس وقدموا له العطايا والصدقات ولكنه تصدق بها على العباد[٣١] فكان الله دائما بجانبه يحفظه وينقذه من الهلاك، فتذكر لنا السيرة أن بيبرس تشاجر مع سعيد الركبدار وهو رجل من الأشرار يخافه الناس لبطشه وظلمه وفسقه، فأراد بيبرس حماية غلام صغير منه، فتصارع الاثنان وقتل بيبرس الركبدار وتمت محاكمته بالإعدام، وفى أثناء ذلك ظهرت كرامات الصالح نجم الدين أيوب، فجاء في منام تاجر المماليك على بن الوراقة وطلب منه بعزة الله الواحد الأحد "إن لم تأت بالمملوك متاعى وتعود إلى أرض الشام لأجله وتنجيه مما هو من وحله لم تدخل بلدى "وهكذا سار ابن الوراقة لإنقاذ بيبرس، وأفتى علماء الشام ببراءته من الجريمة لأنه خلص الناس من الركبدار اللعين[٣٢] وكل هذا بسبب عطفه وإحسانه على المحتاجين ووقوفه بجانب الضعفاء والمساكين. ونقرأ كثيرًا في المصادر التاريخية أن الظاهر بيبرس كان ملكًا كريما ورحيمًا بالفقراء والمساكين وألغى الكثير من الضرائب والرسوم التي كانت مفروضة عليهم من قبل، كما كان يوزع الصدقات على الفقراء والمجاورين في مكة والمدينة ووفر الأطباء والأدوية للمرضى القاطنين والوافدين، وفى كل عام كان يفرق عشرة آلاف أردب قمح على الفقراء والمساكين وأصحاب الزوايا وأرباب البيوت بخلاف ما كان يوزع في شهر رمضان وما يأمر به الأمراء.[٣٣]

وها هو الأمير بيبرس يرد الحق للمظلوم ويحاسب الظالم على ظلمه عندما كان سائرًا في بولاق فإذا به يرى رجلاً يبكي عند باب زاوية مما أصابه من الجور فسأله عما يبكيه، فقال الرجل: "أنى خادم بهذه الزاوية من مدة أربعة سنين ولى فيها أربعة وظائف، وهو أنى وقاد وكناس وملا وأقوم بالناس للصلاة، ولى على ذلك في كل شهر أربعة قروش آخذهم من مطبخة العسل.... ولى أجرة أربعة أشهر بستة عشر قرشًا" لم يحصل عليها بسبب ظلم وفساد المسئول عن الإنفاق وعندما ذهب إليه ليأخذ حقه فلطمه الرجل وطرده في حين أنه كان محتاجًا للمال لأن زوجته أنجبت ولدًا، فما كان من بيبرس إلا وأخذ الرجل الفقير وسار به إلى مطبخه العسل وألزمه بدفع أجرته كاملة وزيادة فأخذهم الرجل وسار إلى حال سبيله بعد أن طلب منه بيبرس الدعاء له في الأماكن الطاهرة.[٣٤]

٦-التصوف في السيرة الشعبية

٦/١-بداية التصوف في مصر وتأثر المصريين به

قبل الحديث عن ظهور التصوف في سيرة الظاهر بيبرس يجب أولاً أن نتعرف على بداية أصل التصوف ودخوله وانتشاره وتطوره في مصر وكيف تأثر المصريون بهذا الفكر الجديد وبالتالي وجود أثره في السيرة الشعبية التي هي نتاج شعبي خالص.

يذكر الإمام الشاطبي مفهوم التصوف في كتابه الاعتصام، حيث قال "وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان، أحدهما: التخلق بكل خلق سني والتجرد عن كل خلق دني، والآخر: أنه الفناء عن نفسه والبقاء لربه"[٣٥]، والتعريفان حدان مانعان للتصوف،

فالأول تعريف بالتجلي من الأوصاف في نفس الإنسان، والثاني انعكاس صوري لذلك التمثل العملي في عالم الكمال والنهاية، من حيث التضحية في سبيل الخالق قربا إليه وبعدا عن النفس، وذلك هو منتهى التصوف وحقيقته، فالأول تصريف للأعمال التكليفية المنوطة بالمسلم بما يحقق تخلقه، والثاني مرآة عاكسة لحقيقة التكاليف من حيث جمالها وكمالها، يقول الشاطبي" فيكون الأول عملاً تكليفيًا والثاني نتيجته ويكون الأول اتصاف الظاهر والثاني اتصاف الباطن، ومجموعهما هو التصوف".[٣٦]

أما ابن خلدون فيرى أن التصوف هو "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة " ويستكمل قوله بأنه " لما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة... ثم لما درج الصحابة رضوان الله عليه، وجاء العصر التالي لعصرهم تلقى أهله هدي الصحابة مباشرة تلقينا وتعليمًا، وقيل لهم: التابعون، ثم قيل لأهل العصر الذي بعدهم أتباع التابعين. ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، وفشا الميل عن الجادّة، والخروج عن الاستقامة، ونسي الناس أعمال القلوب وأغفلوها، وأقبل الجم الغفير على صلاح الأعمال البدنية، والعناية بالمراسم الدينية من غير التفات إلى الباطن ولا اهتمام بصلاحه، وشغل الفقهاء بما تعمّ به البلوى من أحكام المعاملات، والعبادات الظاهرة حسبما طالبهم بذلك منصب الفتيا، فاختص أرباب القلوب باسم الزهاد والعباد وطلاب الآخرة، منقطعين إلى الله، قابضين على أديانهم... انفرد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب" المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة وسمو بالمتصوفة[٣٧]. ومن هنا يتبين لنا أن التصوف ليس أمرا مستحدثا جديدا، ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحياة أصحابه الكرام، فالصحابة والتابعون وإن لم يتسموا باسم المتصوفين، كانوا صوفيين فعليًا.

ولقد عرفت مصر الزهد والعبادة والتقشف في الحياة منذ العصر الفرعوني؛ فنجد المؤرخ هيرودوت يصف الشعب المصري" بأنهم قوم يخشون الله، وإن خشيتهم لله جعلتهم دائماً أقرب إلى احترام الدين وامتثال أوامره، وما زالت آثار الفراعنة وكتاباتهم وصورهم التي خلفوها منقوشة على معابدهم وآثارهم تؤكد أن المصريين القدماء جعلوا للدين المقام الأسمى في حياتهم ونشاطهم"، وبالتالي لم يكن صعبًا أو غريبًا على المجتمع المصري أن يعتنق المسيحية ويخلص في عبادته وتظهر في مصر أولى حركات الرهبنة الفردية والجماعية في ظل الديانة المسيحية.

وحينما تم الفتح العربي الإسلامي لمصر وبدأت الدعوة الإسلامية في طريقها إلى قلوب وعقول المصريين وطالما كان الإسلام يحمل في طياته الدعوة إلى الدنيا والآخرة معًا فأقبل عليه المصريون ومع الوقت ظهر تيار يتحدث كثيرًا عن الآخرة وافتتن به الكثيرين منهم ولذلك عكف البعض على العبادة والتفرغ لذكر الله، واعرضوا عن زخرف الدنيا وشهواتها وملذاتها وعن المال والجاه والسلطان وهذا هو أصل التصوف. ومنذ القرن الأول الهجري وجد بمصر من عُرِف بالزهد والانصراف عن ملذات الدنيا ومتاعها منهم سليم بن عتر التجيبى وكان يدعى الناسك لشدة تألهه وروي عنه أنه كان يختم كل ليلة ثلاث ختمات، وقال سليم عن نفسه "لما قفلت من البحر تعبدت في غار بالإسكندرية سبعة أيام لا أكلت ولا شربت".[٣٨] ومن هؤلاء أيضًا ابن حجيرة، والحارث بن يزيد الحضرمى، وعبد الرحيم ميمون المدنى، وغيرهم كثيرون عاشوا بمصر واتسموا بالتصوف لأنهم تصوفهم ارتبط بالقرآن والسنة النبوية ولم تدخل عليه الأفكار الفلسفية بعد.[٣٩]

ومع بدايات القرن الثالث الهجري ظهرت بالإسكندرية طائفة صوفية تدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم ما لبثت أن تدخلت في شئون الحكم وعارضت السلطان في أحكامه وشارك أفرادها في الاضطرابات السياسية التي كانت بمصر آنذاك بل نجحوا في التأثير على مجريات الأحداث،[٤٠] وعلى نفس نهج الدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر والالتزام بالخلق القويم وظاهر الشرع وباطنه سار آخرون فيما بعد خلال العصر الطولوني والإخشيدي.

أما في العصر الفاطمي فقد تغير مفهوم التصوف عن السابقين حيث بدأ المتصوفة في اتخاذ أماكن خاصة بهم أشبه ما يكون بالخانقا بل قيامهم أيضًا بحركات راقصة وكان الخلفاء الفاطميون يدعمون ويؤيدون هذه الحركة الصوفية فنجد الخليفة الفاطمي يقوم ببناء مصطبة للصوفية تحت قصره بالقرافة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ذهب بنفسه لمشاهده حفلهم الذى يتميز بحركات راقصة جديدة وبين أيديهم الشموع الكثيرة وقد بسط تحتهم حصر

من فوقها بسط ومدت لهم الأسمطة التي عليها كل أنواع الأطعمة والحلوى أصنافًا مصنفة[٤١]، ثم يطالعنا الشعراني بدليل آخر على تبلور الفكر الصوفي في فرقة لها كيان خاص بها؛ ففي حديثه عن أبى عمرو عثمان بن مرزوق القرشى قال: "انتهت إليه تربيه المريدين الصادقين بمصر وأعمالها وانعقد اجماع المشايخ عليه بالتعظيم والتبجيل والاحترام وحكموه فيما اختلفوا فيه ورجعوا إلى قوله"[٤٢] وهذا يدل على أن الصوفية إبان العصر الفاطمي قد أصبح لهم طرق وشيوخ يتعلم على أيديهم المريدون ويدل ذلك أيضًا على أن الفرق الصوفية بدأت تظهر معالمها جلية في ذلك العصر وخاصة في وفاة الخليفة المستنصر الفاطمي عام ٤٧٨هـ وعلى الرغم من انتشار المذهب الشيعي في مصر إلا أن بعض المصريين اتبعوا احد الطرق الصوفية وهى الطريقة الكيزانية نسبة إلى الشيخ الكيزانى.[٤٣]

وكان لضعف واضمحلال الدولة الفاطمية بمصر أثرًا ملموسًا في نفوس جموع المصريين السنة ومن ثم بدأ المذهب الشيعي في الانحسار التدريجي وظهرت من جديد المدارس السنية ومع دخول صلاح الدين الأيوبي مصر تحول التصوف إلى مرحلة جديدة تمامًا حيث اهتم سلاطين الدولة الأيوبية والملوكية بدعم الصوفية ببناء الخوانق والزوايا لهم إلى جانب المدارس السنية رغبة منهم في القضاء على المذهب الشيعي وذلك بتشجيع الفقهاء وجلب الفقراء وإغداق الأموال عليهم وإعادة المذهب الشافعي والمالكي[٤٤] حتى تعجب أبن بطوطة أحد الرحالة المسلمين من "كثرة الزوايا بمصر...وهم يسمونها الخوانق والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم ومن أهل الأدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب".[٤٥]

وإذا كان التصوف الذي يبدو في أصله ظاهرة نفسية فردية فإنه في عصر سلاطين المماليك قد تحول إلى ظاهرة اجتماعية تلقى بظلالها في شتى مظاهر الحياة حيث أصبح الصوفي الذي انعزل عن الناس واعتكف لعبادته ومشاهداته قد تحول فيما بعد إلى شخص يجمع حوله الأتباع والمريدين والمحبين فأصبح أكثر اتصالاً وتقربًا من الأغنياء والفقراء على حد سواء وهكذا تحول التصوف في مصر من ظاهرة فردية إلى ظاهرة جماعية واستمر التصوف في التغلغل والرسوخ في نفوس المصريين وخاصة مع وجود أسباب سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية ساهمت في ذلك.

وبهذا فقد مر المجتمع المصري بحركات التدين وخاصة عندما تطفو على السطح أفكار معينة تتخذ صورة العقائد الدينية التي تستعبد أتباعها ومريديها وتسيطر على اتجاهاتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم. ولا شك أن التصوف الذي انتشر بين المصريين آنذاك يعد أقوى الحركات الدينية توجيهًا لهم وأعظمها أثرًا في حياتهم لاسيما أن الصوفية قد برعوا في إلباس التصوف ثوبًا إسلاميًا بل أحيانًا جعلوا الإسلام منحصرا في التصوف وحده. ومن هنا يبدو طبيعيًا أن نحاول التعرف على الأثر الذي تركه التصوف في نفوس المصريين وإلى أي مدى كان تأثيره في توجهاتهم في شتى نواحي الحياة وكذلك مدى تأثيره في السيرة الشعبية المصرية والتي لعبت دورًا هامًا في تعزيز الهوية الدينية الصوفية لدى الشعب المصري.

٢/٦-صلاح الدين الأيوبي والتصوف في السيرة الشعبية

وصف لنا الراوي في السيرة ظهورًا مؤثرًا لصلاح الدين الأيوبي وهو في ذات الوقت من أهم الحقائق التاريخية التي لمستها السيرة ألا وهي قضية اهتمام صلاح الدين بالتصوف. فقد روت السيرة أن صلاح الدين لم يكن بالرجل المتصوف، لكن الأقدار جعلته كذلك، فتروي السيرة أنه بينما كان صلاح الدين ومعه الأكراد في طريقهم إلي مقر الخلافة العباسية في بغداد، ليطلبوا من الخليفة العباسي أرضًا غير أرضهم بعد أن نزل بهم الثلج فأفسد الزرع وتعرضوا للجوع والهلاك[٤٦] فقابلهم في البرية رجل جميل الطلعة حسن الخلقة يسبح الله ويذكر سيد البشر فتوسم صلاح الدين فيه الصلاح فقبل يده وسألهم الرجل عن بغيتهم، فاخبروه بهدفهم، فأثني عليهم الشيخ، فطلب منهم أن يتبعوه حتى مكان إقامته ليخبرهم بفعل الصواب، فساروا خلفه إلي مغارة، فأمرهم بخلع ملابسهم وإلقاء سلاحهم وأعطاهم ملابس الصوفية وسيوفاً من الخشب وأتراساً من خشب الجميز، وقد أقنعهم الشيخ بأن هذه الأدوات أقوى من سيوف الفولاذ، فقال لهم: " اقلعوا ما عليكم من الملابس وألبسوا هذه الأزلاق وتجملوا بالسيوف الخشب والأتراس الجميز فوعزة الله تعالي إنهم يقومون مقام السيوف واسقوا الأعداء كاس الخوف، واني سألت الله سبحانه وتعالي أن يلبسكم الولاية انتم وذريتكم ويعطيكم الهداية والرعاية وتدرككم العناية من رب البراية"[٤٧] وما أن لبسوا هذه الملابس وتقلدوا

السيوف الخشب حتى صاروا من الأولياء وأمرهم الرجل بالمسير إلي بغداد لإنقاذ الخليفة من الأسر ومحاربة الأعداء ونصرة إخوانهم المؤمنين.

ولنرى معًا كيف وصف الراوي، صلاح الدين وعشيرته عند قومهم بغداد ودخولهم على هلاون ملك التتار الذى ما كاد يجلس على عرش الخلافة حتى " دخل عليه من باب القصر خمسة وسبعون من الأكراد وعليهم آثار العبادة، وهم متقلدون سيوف من خشب، وهم ينادون لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلما رآهم أجمعين اللعين هلاون قال لمن حوله: ما هؤلاء؟ فقالوا له: اعلم يا ملك الزمان حفظتك النيران أن هؤلاء ممن فقراء المسلمين وأظنهم ما أتوا إلى هنا إلا يهنوك بسلامتك ويطلبون إحسانك وهم يذكرون الله تعالى، ويذرون في الأرض، ويأكلون من رزق الله، ويطوفون البلاد، ويحبونهم العباد...."[٤٨].

وهنا نرى أن الراوي يضع أمامنا الصفات والمميزات الأساسية في الصوفي الدرويش منها: ارتداء الملابس الرثة البالية الزهيدة، الطواف في البلاد لأن الأرض كلها لله فليس لهم عمل يتكسبون منه قوت يومهم بل عاشوا في الزوايا والخوانق على نفقة المحسنين من الأثرياء وعامة الناس بدعم ورعاية من الدولة وكل ذلك بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع لعبادة الله الواحد الأحد، بالإضافة إلى أننا نجد في كلامه هنا رمزًا واضحًا للبعد الديني العاطفي في حياة المصريين آنذاك حيث بات الصوفية يلقون التقدير والاحترام والتبجيل بدرجة كبيرة في المجتمع المصري وبذلك فهم محبوبون ومقربون من الناس جميعًا. ولا ريب في ذلك خاصة بعد أن اشتد ساعد الحركة الصوفية بسبب الحروب الصليبية وحركة إحياء المذهب السني - بعد انهيار الحكم الفاطمي – التي لازمت الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ومن المعلوم تاريخيًا أن صلاح الدين اعتمد بدرج كبيرة على المتصوفة في مواجهة العدوان الصليبي كوسيلة لرفع الحالة المعنوية للجنود وبث الحماسة في نفوس المسلمين للتصدي للخطر الراهن آنذاك ولذلك ذكرت المصادر التاريخية أنه كان يصطحب معه عددًا من المتصوفة أثناء حروبه ضد الصليبيين.[٤٩]

ونواصل القراءة في السيرة الظاهرية، فبعد أن دخل الأكراد على هلاون وأقاموا حلقة الذكر، فعندئذ "أمر هلاون بخروجهم من القصر، فصاحت الأكراد بعلو أصواتهم ونادوا: الله أكبر الله أكبر..... فأجابهم من خارج القصر سبعون ألفًا من الأكراد..... وكان المقدم على تلك الأكراد رجل يقال له يوسف صلاح الدين فقام على حيله، وما قصد إلا السجن الذى فيه أمير المؤمنين، وضرب باب السجن بيده، فانكسر الباب بإذن مسبب الأسباب"[٥٠]، وتم بذلك سحق المغول وفقًا لما جاء في السيرة بالسيوف الخشبية التي كانت أقوى من سيوف الفولاذ، ولذلك وثق صلاح الدين في هذه الأسلحة فرفض هو ومن معه إغلاق أبواب بغداد حين هجم المغول هجومًا ثانيا وفي هذه المرة فإنهم سحقوهم بفضل بركة هذه الأسلحة البسيطة وتوكلهم على الله حق توكله.[٥١]

وهنا مرة أخرى نجد تأكيدًا من السيرة الظاهرية على الرمز الديني العاطفي من خلال الأعمال الصوفية الخارقة أو ما عرف باسم الكرامات، فهذا صلاح الدين ما لبث أن لمس باب السجن حتى انكسر تمامًا وفك قيود الخليفة العباسي حامى العالم الإسلامي وأعاده لعرشه وهو بذلك دافع عن الدين الإسلامي ببركة باسم الله الواحد الأحد. وبالتالي فهم محاطون بالعناية الإلهية التي هي إحدى معجزات الصوفية التي يزعم العامة أنهم يأتون بها وتكون المبرر وراء اعتقاد الناس فيهم وفى بركتهم، والأولياء الصوفية عندهم هم القادرون على ممارسة المعجزات في حياتهم وبعد مماتهم.[٥٢]

على الرغم من أن الرواية تجافى الحقيقة التاريخية والمنطقية، لأن صلاح الدين تاريخيًا لم يحارب المغول بل حارب الصليبيين وأعاد بيت المقدس إلى المسلمين وهنا نلاحظ أن الراوي كان يخاطب الناس بما يرضيهم ويكسب عطفهم ويمثل لهم مثلهم العليا وقيمهم في أشخاص تاريخية ظهر فيها البعد الديني بوضوح شديد، كما يتبين لنا أن عامة المصريين لم ينسوا دور صلاح الدين العسرى أو دوره في نشر التصوف في مصر كوسيلة من وسائل تصفية الفكر الشيعي الذي عملت الدولة الفاطمية على ترسيخه منذ نشأتها وحتى قضى عليها صلاح الدين، ومن ثم حول التصوف من ظاهرة فردية إلي مظهر اجتماعي منظم، وفي سبيل ذلك أكثر من بناء الخانقاوات، أو بيوت التصوف وكان أولها خانقاه سعيد السعداء عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م،[٥٣] وقد ساعد تصاعد نفوذ الصوفية في مصر وبلاد الشام على قدوم عدد من أعلام الصوفية في العصر المملوكي للاستقرار بمصر مثل الشيخ أحمد البدوي والشيخ أبي العباس المرسي وسيدى إبراهيم الدسوقي، وقد ساعد توافد أعلام التصوف على مصر على ترسيخ هذا الاتجاه حتى صارت لهم كلمة قوية منذ العصر الأيوبي وحتى يومنا هذا.

كل هذا علق بأذهان المصريين فلم ينسوه، ومن ثم تصوروا صلاح الدين أحد الصوفية الفقراء أصحاب الخرقة، حاملي سيوف الخشب ودروع الجميز التي هي في أذهانهم أقوى من أي سلاح حقيقي بحكم إخلاص هؤلاء المتصوفة للرب المعبود، ومن ثم فهم يقاتلون بأسباب تتعدى أسباب البشر، ومن هنا تتجلى فيهم ملامح البطولة الحقة.

٣/٦-الصالح نجم الدين أيوب والتصوف في السيرة الشعبية

الصالح نجم الدين أيوب أحد الشخصيات المحورية في سيرة الظاهرة بيبرس التي شغلت وجدان العامة وأثرت فيهم فتناولوا شخصيته في سيرة شعبية ممتعة، وجعلته السيرة وليًا من أولياء الله الصالحين الزاهد في الدنيا والرافض للشهوات والملذات وصاحب كرامات ويظهر للعديد من الشخصيات الأخرى في المنام ولديه القدرة على التنبؤ بالغيب ومعرفة ما يحدث في أماكن بعيدة عنه كما يعرف أسماء أشخاص لم يرهم من قبل وقطع المسافات الطويلة في لمح البصر ومعاقبة الله لمن يهين الولي أو يعتدى عليه والقدرة على تحويل شكله وتغيير هيئته وكذلك القدرة على التواجد في أكثر من مكان في نفس الوقت.

وصفت السيرة الصالح نجم الدين قبل توليه الحكم بأنه "زهد في الدنيا ورغب في الآخرة، وقرأ القرآن وعرف الحلال والحرام، فعبد الملك العلام وصار من عباد الله الصالحين، وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين، ولا يجالس أهل الدولة ولا يحاضرهم في حكومة، فسموه الأكراد الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب"[٥٤] وذلك ما أكده المقريزي عندما تولى الصالح نجم الدين الحكم فقام بـ "كشف بيت المال والخزانة السلطانية فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، فطلب القضاة والأمراء الذين قبضوا على العادل وسألهم عن سبب قبضهم عليه فأجابوا: "لأنه كان سفيهًا"، فسألهم: "يا قضاة السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟" فلما أجابوا بالنفي قال لهم: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه"، فخرجوا وعادوا بمبلغ كبير من المال بلغ سبعمائة ألف وخمسة وثمانون ألف دينار وألفى ألف وثلاثمائة ألف درهم.[٥٥]

وتكتمل صورة التقوى والورع والزهد في الدنيا ومفاتنها فنسمع الصالح نجم الدين يقول عن نفسه على لسان الراوي: "أنا رجل أضفر الخوص وأعمل المقاطف ولا أعرف السلطنة ولا أعرف أحكامها"[٥٦]، ويستمر الراوى فى تجميل صورة نجم الدين أمام شعبه مؤكدًا اتصاله بآل البيت ورغبته في التبرك بهم ليصطبغ بصبغة صوفية، فحينما يختار الصالح وزيرًا له يجعل توليه المنصب في مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة وليس في قصره، ثم أكلوا جميعًا الدقة والقراقيش[٥٧]، وعندما أراد نجم الدين الزواج من شجر الدر كان ذلك أيام مولد الحسين فذهب ومعه السادات الأشراف فصلوا جميعًا في جامع سيدنا الحسين ثم عاد إلى قصره لإتمام الزفاف.[٥٨]

ولم تغفل السيرة الشعبية الصفة الأساسية في الصوفي، وهي الكرامات والتنبؤات الذي يتميز بها الولي، وقد تكررت كثيرًا في السيرة، فجعلت الصالح نجم الدين أيوب صاحب كرامات وأعمال الخارقة للطبيعة؛ فيقول الراوى: "إن شجر الدر ذهبت لمقابلته، وقد أشار عليه وزيره أن يعرض عليها الزواج، ولكنها رفضت في أول الأمر، ثم وافقت بعد أن رأت في المنام الصالح نجم الدين يهدد ويتوعد فقبلت الزواج منه،[٥٩] وهكذا بفضل كراماته لأنه ولى الله المجذوب تم الزواج. ومن كرامات الصوفي الصالح نجم الدين ولى الله المجذوب، قدرته على قطع المسافات الطويلة بسرعة البرق، فعندما كانت الملكة شجر الدر في رحلة الحج وفى أثناء زيارتها للمدينة المنورة، وقفت خارج الحجرة النبوية الشريف فرأت شخصًا باكيًا وفى غاية الخضوع والاحتشام فصار ينشد أبياتًا شعرية في مدح الرسول وبعد أن أنتهى فإذا به "الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب..... فغاب عن الأبصار فلم يجدوا له خبرًا ولا وقعوا له على أثر، فتعجب الوزير منه غاية العجب وثبتت عنده كرامات الصالح وزاد حب الملك في قلب السيدة فاطمة "شجر الدر".[٦٠]

ومن كرامات الملك الصالح أنه كان يعرف اسم من يقابله لأول مرة، فعندما كان الخليفة والصالح والأكراد يتقلدون السيوف والتروس الخشبية في طريقهم إلى مسجد الحسين وهم يهللون ويكبرون مثل الدراويش، قابلوا رجالاً بملابس عسكرية " فلما نظر مقدم القوم إلى الخليفة والأكراد.....مد يده إلى الملك الصالح وقال خذ هذا وادعى لي فقال الصالح يا هذا أنا ادعى لك من غير شيء..... فتعجب غاية الإعجاب وكيف أنه ناداه باسمه ولم ينظره إلا في هذه الساعة"[٦١] وكان هذا الرجل اسمه شاهين والذي عينه الملك الصالح وزيرًا له.

كما كان للصالح كرامات أخرى كانت سببًا في هلاك جنود أيبك وحماية مصر من خطره، فيقول الراوي أن الأمير عز الدين أيبك سار إلى مصر للاستيلاء عليها

ولكن أصابه مرض شديد وجنوده ضلوا الطريق وهم تائهون في الصحارى وطلبوا منه العودة إلى ديارهم وهنا قال لهم أيبك " إن هذا الرجل من أولياء الله الصالحين ومن المتوكلين على رب العالمين وانى من يوم عزمت انى اغزيه وأنا مريض بالمرض الشديد وقد صحت عندي هذه الكرامات الظاهرة"[٦٢] وكأن الراوي هنا يؤكد أن الملك الصالح الفقير إلى الله والمتوكل عليه، ذو التقوى والورع والعدل، كل هذا جعله في حماية رب العالمين فجعل أيبك يرتمى تحت قدميه ويقبل الأرض بين يديه ويطلب منه الأمان والعفو، فعفا الصالح عنه وجعله من جملة خدمه.

ومن أهم معجزات الصوفي كما تراها الطرق الصوفية، التنبؤ بالغيب عمومًا والعلم بما يحدث في أماكن بعيدة عنه كأنه يرى الأحداث والأشخاص في البلورة السحرية أو كأنه مكشوف عنه الحجاب كما يقول العامة، فتقدم لنا السيرة قصة أخرى تفسر هذه الميزة ، فالصالح رأى نفسه في المنام وحيدًا في صحراء قفراء وحوله ضباع وهو بدون سلاح أو مُعين حتى شاهد خمسة وسبعين سبعًا فتكوا بالضباع، وهنا فكر الملك الصالح في شراء مماليك لحمايته، وحدد بعض الصفات في أحدهم فكان الظاهر بيبرس، والذى سماه الراوي محمود العجمي- وطوال رحلة تاجر المماليك السلطاني في البحث عن مماليك كان الصالح نجم الدين يرى ما يحدث هناك ويأتي له في المنام – كما جعلته السيرة بمثابة الابن للصالح نجم الدين أيوب الذى تولى حكم مصر فيما بعد، ويظهر الظاهر بيبرس في الملحمة كغلام مريض ذليل محتقر اسمه محمود العجمي "لا يأكل ولا يشرب ولا ينام من شدة المرض والأسقام"، ولكن الأمير أيدمر وتاجر مماليك السلطان الصالح أيوب واسمه في السيرة الخواجة علي ابن الوراقة عطفا عليه وأدركا من ذكائه وفصاحته أنه أمير من أولاد الملوك من أرض خوارزم، ووجد فيه ابن الوراقة نفس الصفات التي طلبها الملك الصالح في مملوكه، فأكرماه واعتنيا به إلى أن فتحت شهيته واشتاق لأكل "كشكًا بالدجاج"، ومع مرور الوقت شفي وصار محترمًا ومهابًا، وتتوالى الأحداث في السيرة إلى أن دخل القاهرة، وبعد مضي الأيام في القاهرة تبناه الملك الصالح وزوجته فاطمة شجر الدر ليصبح ولدًا لهما ويكون للملك الصالح الفضل في وصول بيبرس إلى الحكم كأنه صاحب كرامات وتنبأ بشأنه في المستقبل.[٦٣] فتحقق بالفعل ما تنبأ به الصالح وصار الظاهر بيبرس يتنقل من منصب لآخر حتى اصبح بطلاً حقيقيًا، ونال الانتصار على الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة على مصر ثم الانتصار على المغول وحماية العالم الإسلامي فتولى الحكم ووضع قواعد وأسس لدولة جديدة، ولذا فهو المؤسس الفعلي للدولة المملوكية.

وهكذا كانت الصورة المحببة شعبيًا للسلطان للصالح نجم الدين أيوب والتي رسمتها السيرة الشعبية، فلقد رأت العامة في الملك الصالح، ملكًا عادلاً نقيًا يكره أن يأكل من الأموال العامة كما يكره الظلم والجور ولذلك صوره الخيال الشعبي في صورة الزاهد صاحب الكرامات وأفعال ما وراء الطبيعة والمعجزات، كما أنه لم يأكل إلا من عمله بصناعة المقاطف الخوص ويأكل من طعام العامة، الدقة والقراقيش.

ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنتعرف على الملامح العامة لشخصية الصالح نجم الدين أيوب كما رأها وتحدث عنها مؤرخو عصره، فقدموا لنا دلالات تاريخية عن ولى الله المجذوب، ربما نفهم ما فعله الراوي وكيف يُشكل الوجدان الشعبي صورة الأبطال والأحداث، فتذكر المصادر التاريخية عن شخصية الصالح نجم الدين أنه " كان ملكًا شجاعًا حازمًا مهيبًا لشدة سطوته وفخامة ناموسه، مع عزة النفس وعلو الهمة، وكثرة الحياء، والعفة وطهارة الذيل، وصيانة اللسان من الفحش في القول، والإعراض عن الهزء، وشدة الوقار ولزوم الصمت.... وهو في غاية الوقار ولا يرفع بصره إلى من يحادثه، حياء منه، ولم يسمع منه قط في حق من خدمه لفظة فحش... ولا عرف من النكاح سوى زوجته وجواريه...".[٦٤]

أما عن أحوال المملكة في فترة حكمه فيقول المقريزي "وكانت البلاد في أيامه مطمئنة والطرق سابلة.. وكان يجرى على أهل العلم والصلاح المعليم والجرايات من غير أن يخالطهم، ولم يخالط غيرهم لمحبته في العزلة ورغبته في الانفراد، وملازمته الصمت، ومداومته على الوقار والسكون".[٦٥]

وعندما سقطت دمياط في أيدى الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة عام (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) شعر الصالح نجم الدين بالمرارة والألم مع مرضه الشديد وأمر بإعدام عددًا من الفرسان الذين هربوا من المعركة[٦٦]، ولكنه لم يستسلم للهزيمة واستعد جنوده للقتال وأثناء ذلك أحس بدنو أجله فنودى في مصر، من كان له على السلطان أو عنده شيء فليحضر ليأخذ حقه "ثم مات السلطان الصالح نجم الدين أيوب صغيرًا في السن عن عمر أربع وأربعين سنة شهيدًا في ساحة الجهاد ضد الصليبيين بمدينة المنصورة.

هذه هي صورته في كتب التاريخ ودوره البطولي في الدفاع عن البلاد، ولقد مات في ريعان شبابه بعد حياة حافلة بالصراعات والمآسى والمرض وانشغاله بتعمير البلاد وتحسين أحوال العباد، وبهذا يمكن القول أن سيرته التاريخية وجهاده في الدفاع عن الدين وعن البلاد الإسلامية من الخطر الصليبي كانت السبب في أن الخيال الشعبي وضع الصالح نجم الدين في قالب صوفي متميز وجعله يأتي بالخوارق والمعجزات وينكشف عنه الحجاب وصاحب كرامات، في حين تغافلت العامة عن بعض التجاوزات في حكمه وركزت فقط على أخلاقه الطيبة وجهوده المضنية في حماية الدولة الأيوبية التي غدت في تلك الفترة ممزقة وضعيفة يتصارع رجالها ويختلفون في الأهداف والمصالح بعكس الصورة التي كانت عليها الدولة في عهد صلاح الدين الأيوبي الذى وحد الجهات معًا تحت لواء الإسلام والجهاد.

٦/٤-الظاهر بيبرس والتصوف في السيرة

تناولت السيرة الشعبية أيضًا علاقة السلطان الظاهر بيبرس بالصوفية والمتصوفة واحتفت احتفاءً كبيرًا بهم، حيث تنسب الظاهر بيبرس إلى الصوفي سيدى إبراهيم الدسوقي وربطته بالسيد أحمد البدوي وجعلته أبنًا روحيًا له ومن أفضل مريديه فيحظى بعنايته ورعايته فيصل إلى منصب الحاكم للبلاد ويحقق البطولات والانتصارات بفضل دعاء السيد البدوي له ويصير محبًا لأولياء الله، فيحكى الراوي قصة حياة الظاهر بيبرس في شبابه وتنقله من تاجر إلى آخر موضحًا الظروف التي جمعت بيبرس بالسيد البدوي فيقول "فلما كانت تلك الليلة أخذه المنام بأمر مدبر الأكوان، لما سبق في علم الملك الحنان المنان، فينما هو في شدة أسقامه وقد استغرق في منامه....وإذا قد ظهر في ذلك المكان نور عظيم يأخذ البصر السليم، وفى عقب ذلك النور رجل عابد زاهد شكور.... وأقبل رجلان قد صفوا الكراسي في الجبهتين، ثم أتوا بكرسي كبير ووضعوه في صدر ذلك المجلس وصاح الرجل الأول وهو نقيب الرجال وهو يقول: يا سادة الأرض ذات الطول والعرض، احضروا ذلك المحضر، وكما قال قطب الأقطاب الأكبر سيدى أحمد البدوي، والشريف العلوى صاحب الإمداد النبوي، فعند ذلك أقبل الرجال كأنهم أقمار.....ثم قال الرجال: أين السلطان، وبطل الأبطال وعين كل إنسان؟ فقال لهم النقيب: تأنوا حتى يحضر باقي الأقطاب.... فنهض الجميع ووقفوا على كراسيهم وأجلسوه وقبلوا يديه ثم أمرهم بالجلوس.... وبعد ذلك فقال أحد الأربعة: يا سلطان الرجال وبطل الأعيان، هذا ملك الزمان وفارس العصر والأوان، وهو الذى ينصر الإسلام، ويقيم الأحكام، ويذل جيوش اللئام، فقال الثاني: هو هذا الذى يفتح السواحل والبلاد، وتطيعه أهل السواد، وينصره النبي الهادي، فقال الثالث: سبق في علم الله أن كل شيء بقضاء الله فاطلبوا من الله أن يكشف ضره وبلاءه، فقال الآخر: اطلبوا من خالق البرايا واسألوا صاحب العطايا أن يزيل جميع المضرات، فما منكم إلا وهو مجاب الدعوات.... فقال السيد أحمد البدوي: اعلموا أن هذا ولدى، ولابد أن يأخذ عهدى، ويحفظ ودى، وأنا سألت الله العظيم رب موسى وإبراهيم وزمزم والحطيم، أن ينصره على جميع أعدائه، ويذل له العتاة، فقال الدسوقي: أسال الله العظيم رب موسى الكليم أن الله يريه ليلة القدر عن قرب ويكون دعائه فيها مجيب، فقال الجيلاني، أسال الله تعالى يعلى قدره، ويدبر أمره، ويهدى سره، ويطيل حكمه، فقال صاحب الوقت: اللهم اشف كل من كان في هذا المكان لأجل خاطر هذا الإنسان".[٦٧]

ويظل الظاهر بيبرس في رعاية وحماية أولياء الله الصالحين وآل البيت، فالسيدة نفيسة رضى الله عنها تظهر في المنام لرجل وزوجته على صلة بالظاهر بيبرس وفى يدها ولد كأنه البدر وقالت لهما: "أنا عمة الحسن والحسين... وهذا هو محمود المكنى بيبرس وهو الذى تفتح على يديه بلاد الكفار ومداين أهل الأشرار وهو صاحب الفن والوقار وتكون مصر في حكمه، ويكتب اسمه على السواحل والأقطار، هذا الأمير بيبرس أبو الفتوحات والنصر يسمى الظاهر وسوف يكون ملكًا وسلطان وتذل له رقاب الإنس والجن"[٦٨]، وكلما ضاق به الحال وشعر بيبرس بالألم والحزن أو حدثت له مشكلة ما، يذهب إلى مسجد السيدة نفيسة ويبسط يده بالدعاء ليقضى الله له حاجته، ويناجى السيدة نفيسة أن تبقى بجانبه ويطلب منها الخير والصلاح والمشورة فيما يفكر فيه، ومن ثم ترضى عنه وتأتى له في المنام لتطيب خاطره وتهدأ من روعته وتطمئنه على المستقبل الذى يخشاه.[٦٩]

والحقيقة التاريخية تذكر أنه نظرًا لاتساع نفوذ الصوفية وتزايد مؤيديهم من عامة الشعب لجأ الظاهر بيبرس إلي التقرب منهم والتودد إليهم بل والتذلل لهم، ويؤكد ذلك مدون سيرة الظاهر بيبرس، ففي عام٦٦١م زار السلطان الإسكندرية وتوجه لزيارة الشيخ صالح القباري، واستأذن في الزيارة فلم يأذن للسلطان بدخول مسكنه ثم تنازل الشيخ وقابله في بستان الدار ثم ذهب لزيارة الشيخ الشاطبي[٧٠]. ودليل

آخر على زيادة قربهم من السلطان بيبرس، أنه أذن لهم بمصاحبته في حملاته العسكرية حيث صاروا جزءًا مهما من جيشه على سبيل التبرك مثل حملة فتح أرسوف عام (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) التي برز فيها الفقراء الصوفية كما حرص الظاهر بيبرس على زيارة قبر أحد العباد الزهاد قرب أرسوف قيل أن المسلمين والفرنجة يعظمونه[٧١] وفي ظل هذه الظروف برزت شخصية لبست عباءة المتصوفة وقربها الظاهر بيبرس ومنحها سلطات واسعة بشكل غير رسمي هذه الشخصية هي الشيخ خضر المهراني العدوى الذى اسماه الراوي في السيرة بالسيد البدوي.

وفيما يخص اتصال الشيخ خضر بالظاهر بيبرس فقد جاء الاتصال عن طريق الأمير سيف الدين قشتمر العجمي، الذي كان محبًا للتصوف ومن هنا تتبع آثار الصوفية الأعلام وجلس إليهم ومن بين من أعجب به من مشايخ التصوف كان الشيخ خضر، الذي تردد إليهم كثيرًا في معتكفه في جبل المزة، ومن هنا نشأت بينهم صداقة جعلت الشيخ خضر يسر إليه بكثير من الأمور ومن أهمها أن زميله الأمير ركن الدين بيبرس سوف يكون سلطانًا، وكثيرًا ما تنبأ بأخبار لبيبرس فتحقق ما تنبأ به فأخبر الأمير قشتمر بيبرس بذلك، فتردد إليه الظاهر في جبل المزة وذلك أثناء هروبه من مصر عقب مقتل أستاذه أقطاي ولجوئه إلي الناصر صاحب دمشق، فأكد له البشرى ويقال أنه حدد له زمان ولايته[٧٢]، ولما ولي الظاهر بيبرس السلطنة عام ٦٥٩هـ كانت العلاقة قد توثقت بين الشيخ خضر وقشتمر العجمي الذي استغل الظروف أثناء زيارة الظاهر لدمشق فذكره بالشيخ خضر وبما تنبأ به من قبل للسلطان من خير وتحقق، فسأل السلطان عن خبره فأعلمه قشتمر أن الشيخ خضر معتكف في مغارة قرب قبر أبي هريرة رضي الله عنه، فتوجه إليه السلطان بنفسه، وبعد حديث طويل أمر السلطان الشيخ خضر بترك المعتكف وملازمته في حله وترحاله، ومما زاد في حب السلطان للشيخ مدح الأمير سيف الدين أتامش العجمي فيه، الذي كان على علم بنبوءة الشيخ بولاية بيبرس أمر السلطنة[٧٣]، وكان بيبرس قد طلب من الشيخ خضر كتم النبوءة حتى لا يكون ذلك سببًا لتعرضه للخطر[٧٤]. وهكذا اتصل الشيخ خضر بالظاهر بيبرس ونتج عن هذا الاتصال كثير من المنافع للطرفين.

٧-الدفاع عن البلاد الإسلامية في السيرة

١/٧-الملك الكامل الأيوبي وبيت المقدس

إن الدفاع عن الدين وحماية الوطن الإسلامي واجب وفرض على كل إنسان مسلم، يقوم به بشتى الطرق والوسائل الممكنة وغير الممكنة، وهو في حد ذاته ركيزة قوية من ركائز الهوية الإسلامية تتجلى بوضوح في السيرة الظاهرية، وخاصة ما قام به الملك الصالح نجم الدين أيوب والظاهر بيبرس لحماية العالم الإسلامي من العدوان الصليبي في الحملة الصليبية السابعة على دمياط. وتحمل آيات القرآن الكريم وأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مصر، فضلاً عما تثبته أحداث التاريخ، وهناك الكثير من الأدلة تؤكد على حقيقة خصوصية مصر ومكانتها في الإسلام، وأنه لا انفصال ولا تعارض بين ولاء المسلم لدينه وولائه لوطنه، بل تؤكد أن ولاء المسلم لوطنه هو من صميم الإيمان، من ذلك الحديث الشريف: "من مات دون أرضه فهو شهيد، ومن مات دون ماله فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهو شهيد." لقد أعطى المولى عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم مصر - دونا عن باقي بلاد الأرض قاطبة - قدرًا هائلا من الخصوصية بما يعد تكريمًا وتشريفًا وتعظيمًا لهذا البلد بالذات. وبقدر ما في هذه الخصوصية من تكريم وتشريف لمصر وأبنائها، بقد ما هو تكليف واقع على كاهلهم، شرفَّهم المولى عز وجل بتحمل عبأه، ويرتبط بقدر هذا البلد في الدفاع عن الإسلام، وما هو منوط بأبناء مصر من حماية مقدسات المسلمين وحرماتهم، وتبليغ رسالة الإسلام على الدوام والاستمرار. فالمسألة إذن ليست مسألة وطن وإن كان فريدا في حياته، فريدا في مولده، ولكنها مسألة وطن أراد الله تعالى أن يرتبط مصيره بمصير الإسلام على الأرض.

وقد ذكرت السيرة الملك الكامل مرة واحدة بأنه بعد وفاة أبيه صلاح الدين الأيوبي "جلس على كرسي أبيه وقد أطاعه جميع أهله وذويه وحكم بين الناس بالإنصاف والعدل وترك الجور والإسراف وعدل في الرعية سنة كاملة وبعد ذلك طلب الخراج من البلاد فأطاعته سائر العباد وحملوا إليه الأموال والجواهر الثقال..... وأنجب ذكرًا سماه نجم الدين"[٧٥]. والحقيقة التاريخية تذكر أن الملك الكامل هو ابن العادل أخو صلاح الدين وليس ابنه ولكننا في السيرة الشعبية لا نلوم على الراوي في خلط الأسماء وأنسابها لأنه يهتم فقط بالأحداث ومدلولها أما الأسماء فيستخدمها لكي يصل إلى نقطة أخرى مهمة في روايته. كما تذكر أنه كان رجلاً عفيفًا وكريمًا وينفق الأموال على الفقراء والمساكين وخصص لهم رواتب شهرية وكان محبًا للعلماء ومجالستهم وسماع مناظراتهم ومغرمًا بسماع الأحاديث النبوية وغيرها من الصفات

والأخلاقيات الرشيدة[٧٦] ورغم ذلك تجاهلته السيرة الشعبية ويرجع سبب تجاهل السيرة للكامل الأيوبي إلى الحقيقة التاريخية القائلة بأنه سلم بيت المقدس للملك فردريك الثاني دون قتال أثناء أحداث الحملة الصليبية السادسة على دمياط عام ١٢٢٩م في مقابل رحيل الصليبيين عن دمياط، مما أغضب الشعب المصري بل والعالم الإسلامي الذى رأى أنها كارثة حقيقية وليست هدنة وأنه ضحى بالمصلحة الإسلامية العامة في سبيل مكاسب إقليمية كان من الممكن تحقيقها دون هذا التخاذل والخزي والعار الذى لحق بالمسلمين بسببه تصرفه البشع. وهنا يصف لنا المؤرخ ابن واصل ذلك الوضع البائس بقوله "وللكامل هفوة جرت منه، عفا الله عنه لأنه سلم بيت المقدس إلى الفرنج اختيارًا، نعوذ بالله من سخط الله ومن موالاة أعداء الله".[٧٧]

ويستكمل المقريزي صورة الفاجعة ويرسم لنا صورة حيوية ونابضة ومعبرة لرد فعل شعبي تجاه السلطان الكامل الأيوبي موضحًا أن تلك الهدنة كان مدتها عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يومًا، ثم يقول: "فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا في غير أوقات الصلاة، فعز ذلك عليه، وأمر بأخذ ما كان معهم في الستور والقناديل والفضة والآلات وزجرهم، وقيل لهم: امضوا حيث شئتم فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار".[٧٨] وهذا يعنى أن الشعب المصري لم يغفر للملك الكامل ذلك الخطأ الفادح سواء في المصدر التاريخي أو في السيرة الشعبية التي تغاضت عنه لأنه بتسليم القدس للعدو فإنه تنازل بسهولة عن أهم رموزه الدينية والحضارية، فبيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين تُعَدّ جزءًا هامًا من الهوية الإسلامية للعالم الإسلامي ولذ نجد الراوي الشعبي يذكره عابرًا ليدين خيانته للإسلام والمسلمين وبالتالي فالسيرة عبرت بدقة ووضوح عن ضرورة الدفاع عن مدينة مقدسة وأكدت على أن حماية بيت المقدس والعناية به ركيزة من ركائز الهوية الإسلامية.

٢/٧-بيبرس يدافع عن مدينة دمياط أثناء الحملة الصليبية السابعة

في حقيقة الأمر كانت حملة لويس على مصر عام ١٢٤٨م حدثًا مرتبًا وله أسبابه، فالصالح نجم الدين أيوب استطاع أن يمحو العار الذى خلفه والده الكامل، واسترد بيت المقدس عام ١٢٤٤م ولذا بدأت الدعوات في أوربا لتحرض ملك فرنسا لاستعادة المملكة مرة أخرى[٧٩]، ونجد أن السيرة الشعبية الظاهرية تفسر لنا فهم المصريون للعلاقة بين المسلمين والصليبيين الذين كانوا يسعون دائما للغزو والاستيلاء على الأراضي الإسلامية والمسلمون لا يكلون عن الدفاع المستمر، وأن هذا هو سبب الأساسي للحملة الصليبية والذى اتضح فيما بعد في السيرة. فيحكى لنا الراوي أن بداية الأحداث منذ أن قام الجاسوس جوان النصراني الكافر عالم الملة المسيحية بنقل الأمير بيبرس مخدرًا بالبنج إلى جنوة للانتقام منه، وعلى الفور قام الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب بالاستعداد عسكريًا وشن حملة عليه ونجح في إذلال ملك جنوة في بلاده وفداء نفسه بالمال، فاستنفر جوان ملوك المسيحيين للثأر خشية تمكن بيبرس وتملكه مما يمهد لحرب ضروس يخوضها لطرد الصليبيين وقطع دابرهم وكف أيدهم عن الدولة الإسلامية.[٨٠] فيرى الوجدان الشعبي أن عودة بيت المقدس إلى المسلمين أثارت الغضب والرغبة في الانتقام من المسلمين فاجتمع ملوك أوربا لتجهيز حملة ضخمة لتدمير مصر القلب النابض للعالم الإسلامي والمدافع عنه وللتخلص من الملك المسلم لكونها مدينة إسلامية مقدسة للمسيحيين وللمسلمين على حدٍ سواء.

ويقص علينا الراوي أخبار هؤلاء الجبابرة الكفار والسبب في مجيئهم "أن جوان لما هرب من عند الرين حنا قال له سيف الروم وما تريد أن تفعل فقال له أريد أن أركب على بلاد المسلمين لعلى آخذ بالثأر وأجلى عن نفسي العار ثم سار اللعين إلى الخلوات فاجتمع بهؤلاء الأربعة وكان مقامهم في قلعة على سن الجبل يقال له جبل المرور يمر عليه المسافرين وكان مقامهم في الجبل لأجل نهب التجار وقتل المسافرين فلما دخل عليهم جوان استقبلوه وحيوا مثواه وذبحوا له خنزيرة تحت رجليه ولما أن استقر به الجلوس بكى واشتكى فقالوا له ما يبكيك يا عالم الملة فقال ابكي على ملة زرارة لم بقت تساوي زبلة حمارة وقد ظهر يا أولادي غلام ابن حرام يقال له بيبرس وهو الذي يهد الصوامع ويبنيها جوامع ويهد الكنايس ويجعلها مدارس ويسد بلاد أهل الطغيان بالزفت والقطران وقد أتاني السيد المسيح في المنام وقال لي لا تقع لك النصرة إلا على فرعه وأخيه فرعية والملكين الآخرين بولص وحنين فأتيت إليكم يا أولادي واعلمتكم بما قال المسيح وقد أوعدكم النصر وأوهبكم في الآخر بسقر ففرحوا فرحا شديدا ما عليه من مزيد ثم جمعوا الرجال

وفرقوا عليهم الأموال وسار بهم جوان إلى أن أتوا إلى ذلك المكان"[٨١]، وهنا يتبين لنا أيضًا أن الصليبيين لم يعترفوا بالهزيمة السابقة، فاتخذوا حجة إعادة الكنائس القديمة لحالها زريعة لغزو مصر فى حين أن الحقيقة التاريخية أثبتت عكس ذلك.

وقد عظمت السيرة دور بيبرس في الحملة أيما تعظيم فقد جعلت عدم مشاركته في القوات المصرية في البداية سبب الهزيمة حين تم خداع أيبك من قبل جوان أما بيبرس فقد خرج من السجن ولبى نداء الواجب دون توان وخرج على رأس القوات المصرية ووضع الخطط المناسبة لإدارة المعركة من حيث توزيع القوات أو إدارة المعركة وهو ما كفل النصر أمام دمياط وفي المنصورة وفارس كور حتى قطع دابر القوات الغازية، وفي خضم المعركة كان يعظ الملك تورانشاه حتى لا يشرب الخمر حتى ينزل الله النصر على المؤمنين[٨٢]، وبسبب الدور الأكبر لبيبرس في نصر المنصورة وما جلبه للإسلام والمسلمين من انتصارات في عين جالوت وبعد ولايته للسلطنة وتحقيقه فوزًا ساحقاً على الصليبيين في بلاد الشام، كل ذلك جعل السيرة الشعبية تنسب إليه كل الانتصار وإدارة كل المعارك وتصفه بالتقوى والورع والصلاح خاصة أنها كانت معارك دفاعية عن الإسلام والمسلمين وليست هجومية.

وعلى الجانب الآخر كانت الذاكرة الشعبية على قدر كبير من الوعى وفهم الأحداث، فوصفت تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين بأنه سكير لا يترك الشرب وأظهرت بيبرس في ثوب المحافظ على الشرع المستحق للعرش وفي النهاية برأت السيرة بيبرس من دم تورانشاه الذي سقط من فوق برج خشبي أثناء متابعته للمعركة فخر قتيلا وكاد بيبرس يقتل بسبب ذلك حين اتهمه الأمراء بأنه هو من القاه من فوق البرج غير أن العناية اللاهية أنقذته حين قام تورانشاه من موته وأخبر الجميع أن بيبرس بريء ثم عاد للعالم الآخر.[٨٣] مما يدل على تدين الشعب المصري من ناحية ووقوفه بجانب الحاكم المسلم التقى الذى حمى الإسلام وحافظ على الدولة من ناحية أخرى.

هذا أيضًا ما اتفقت عليه المصادر التاريخية مع السيرة الظاهرية في توضيح شخصية تورانشاه الذى قتله المماليك بسبب فساد أخلاقه الشخصية وبأنه كان عديم الخبرة وجاهل بشئون الحكم والسياسة و سيء التدبير كثير الشراب، ومن ثم ابعده الملك الصالح عن مصر وولاه ديار بكر في أقصى شرق مملكته حتى يكف عادية شره[٨٤]، كما وصفه ابن الجوزي بأنه "سيء التدبير ذا هوج وخفة ". كما أحضر معه من ديار بكر مجموعة من الندماء خصهم بالإقطاعيات دون المماليك المصريين، وأخذ يعد للخلاص من المماليك بعد ارتفاع شأنهم عقب النصر على الصليبيين، ونتيجة لسكره وطيشه فقد كان يضرب الشموع بالسيف ويسمى كل منهم باسم أحد الأمراء ومن هنا قرر المماليك الخلاص منه قبل أن يسبقهم كما أساء لشجر الدر التي أدارت البلاد حتى عاد وكانت نهايته في برج خشبي حين هجم عليه المماليك ففر اليه مجروحا فاشعلوا فيه النار فسقط في الماء ليموت جريحًا حريقًا غريقًا[٨٥]، وقد أكد ابن واصل أن بيبرس البندقداري هو أول من ضربه حين قال "دخل ركن الدين بيبرس البندقداري.... فجذب سيفه وحمل على المعظم فجرحته جرحا خفيفًا ورمى ركن الدين بيبرس السيف من يده رعبا وهرب" واتجه أقطاي إلى برج خشبي فاشعلوا فيه النار حتى نزل واستجار بأقطاي "قصده حينئذ ركن الدين بيبرس ثانية وبيده السيف فمر يعدو إلى جهة النيل.... تبعه ركن الدين بيبرس فضربه بالسيف فقتله"[٨٦].

خَاتِمَةُ

هذه بعض الملامح العامة التي اعتمدت عليها من السيرة الظاهرية لعلاج قضية ارتباط التراث بالهوية الإسلامية، ولذا من المهم عرض بعض الملاحظات في هذا الموضوع:

السيرة الشعبية تكاد تكون رؤية وجدانية للتاريخ وأحداثه وأبطاله ولا تنتمي لعصر بعينه إنما هو نتاج مستمر في إطار فني تلقائي، ولذا فالسيرة مجهولة المصدر دائمًا وتتناقل على ألسن الرواة الذين يضيفون إليها ويعدلون في أحداثها وفى بناء شخصيتها.

ولأن الحكاية الشعبية إبداع فني يشكله وجدان الجماعة فنجد أن السيرة الشعبية تختار شخصًا تاريخيًا وتعيد صياغته في إطار شعبي يلبى حاجات الجماعة ويفسر التاريخ لصالح الناس، ولذلك فإن الراوي يصور بطلاً ما يحمل الصفات والقيم والأخلاقيات التي يفضلها العامة في زعمائهم، كما يحور الشخصيات التاريخية الواقعية بشكل يوافق الرؤى الشعبية فلا يلبث الحدث التاريخي أن يتوارى خلف تراكمات الخيال التي تصنع متنفسًا حقيقيًا للمشاعر الشعبية من ناحية وتبرر الإحباط واليأس في وقت الأزمات.

تعبر السيرة عن التدين الشعبي في ذلك الوقت وركائز الهوية الإسلامية لدى المجتمع، وبالتالي فالسيرة الشعبية لم تقصد التحقيق والتدقيق في

الحدث التاريخي بل اهتمت بالمغزى فهي تشتمل على حقائق وكذلك على خرافات أو خيال محض فيقوم الراوي بتنظيم الأشخاص في سلك واحد رغم تباعد السنوات بينهم فهو لا ينظر إلى فوارق الزمان والمكان، كما نجد في السيرة الاعتماد على الأولياء الصالحين والجن والخرافات المنسوجة حول الكائنات ذات القوة الخارقة.

فصورت السيرة الظاهرية الصالح نجم الدين أيوب في صورة الزاهد صاحب الكرامات وفاعل الخوارق والمعجزات ولا يأكل إلا من عمل يده، كما كان لزوجته شجر الدر نصيبًا من الخيال الشعبي فصورتها أميرة حرة وليست جارية وأنها سيدة متدينة عطوف محسنة تجول في البلاد لتحسن إلى العباد وجعلت الظاهر بيبرس من مريدي السيد البدوي.

قدمت السيرة الظاهرية صورة واضحة ومعبرة عن ركائز وأساسيات الهوية الإسلامية كالإيمان بالله ورسوله قولاً وفعلاً، وأخلاقيات المسلم كالرحمة والعطف على المسلمين وغيرهم والتصدق على الفقراء والمساكين، والدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين وصورت مَنْ يتغافل عن ذلك بالخائن لدينه وأهله فتعمد الراوي الشعبي تغافله وعدم ذكره.

الهَوامِشُ:

(١) محمد عمارة، **الأعمال الكاملة للشيخ جمال الدين الأفغاني**، تحقيق ودراسة، دار الكتاب العربي، ب.ت، ص ١٣١.

(٢) محمد عمارة، **التنوير بين العلمانيين والإسلاميين**، جمعية المركز العالمي للتوثيق، دار النهضة المصرية، ٢٠٠٧م، ص٣٧.

(٣) على زيعور، **الخطاب التربوي والفلسفي عند محمد عبده**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٥٠-١٥١.

(٤) ساطع الحصري، ما هي القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٥) خليل نورى العانى، **الهوية الإسلامية في زمن العولمة**، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، ٢٠٠٩م، ص ٣٤-٣٥.

(٦) طه حسين، **مستقبل الثقافة في مصر**، دار المعارف القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٥.

(٧) جمال سلطان، "**صراع الهويات وخصائص الهوية الإسلامية**"، منشور على موقع الشبكة على الإنترنت: (www.islamweb.com)

(٨) عبد الكريم بكار، **الرحلة إلى الذات (تجديد الوعي)**، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٦٩-٧٠.

(٩) خليل نوري، **الهوية الإسلامية**، ص٤٥.

(١٠) سورة البقرة، الآية (٢٨٥).

(١١) أشرف صالح محمد سيد، **الدور الحضاري في الوطن العربي أسباب الدمار والتلف**، جائزة النور والإبداع، دورة المفكر عبد الله الصائغ، مؤسسة النور للثقافة والإعلام، ص٧.

(١٢) سلامة سالم سلمان، **دور المصادر التراثية في تحقيق التنمية المستدامة مع بيان دور المنظمات غير الحكومية في إدارة المصادر التراثية**، ندوة الاتجاهات الحديثة في إدارة المصادر التراثية، تونس٢٠٠٧.

(١٣) محيى الدين ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م

(١٤) شافع بن على الكاتب، **حسن المناقب المنتزعة من السيرة الظاهرية**، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٦٧م

(١٥) عز الدين بن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م.

(١٦) سوزان إبراهيم، مقال "**الظاهر بيبرس آخر السير الشعبية – اختفاء الحكواتية أوقف الإضافات**"، صحيفة الثورة – دمشق-الأحد ٢٧-٩-٢٠٠٩م.

(١٧) طبعت السيرة في القاهرة بدون تاريخ باعتناء عبد الحميد أحمد الحنفي بشارع المشهد الحسيني ونفذت منذ وقت طويل، كما أعيد طبعها في مجلد واحد في بيروت بالمكتبة الثقافية أيضا بدون تاريخ لكن تخلو من الأشعار. وأعيد طبع السيرة حديثا طبعة مصورة عن طبعة عبد الحميد أحمد حنفي وقدم لها جمال الغيطاني بالهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٦م.

(١٨) **السيرة**، م١، ص ١٠.

(١٩) **السيرة**، م١، ص ١٩-٢٠.

(٢٠) **السيرة**، م١، ص ٢٧-٢٨.
(٢١) **السيرة**، م١، ص ٢٥.
(٢٢) **السيرة**، م١، ص ١٢٦.
(٢٣) شمس الدين أبى عبد الله بن القيم الجوزية، **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، المؤيد، دمشق، ١٩٩٢م، ص١٢٣، ١٢٩.
(٢٤) **السيرة**، م١، ص ٦٥.
(٢٥) **السيرة**، م١، ص ٦٥-٦٨.
(٢٦) **السيرة**، م١، ص٣٠-٣٤.
(٢٧) أبو عبد الله محمد بن الحاج، **المدخل إلى الشرع الشريف**، (القاهرة، ١٣٢٠هـ)، ج٢، ص١٠٧.
(٢٨) **ذيل وليم الصوري**، ترجمة د.حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٠٩-١١٠.
(٢٩) **سورة آل عمران**، الآيتان: ١٣٣-١٣٤.
(٣٠) **السيرة**، م١، ص ٢٥-٢٧، ٥٧، ٦١.
(٣١) **السيرة**، م١، ص ١٤٥-١٤٦.
(٣٢) **السيرة**، م١، ص ١٤٩-١٥١.
(٣٣) ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، ٣٠٠-٣٠٢، تقى الدين أحمد المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ج٢، ص ١٠٦، أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، الهيئة العامة، ١٩٣٨م، ج٧، ص ١٨٠.
(٣٤) **السيرة**، م١، ص٣٦٣-٣٦٧.
(٣٥) أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي، **الاعتصام**، دار بن عفان، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص ٢٦٥.
(٣٦) الشاطبي، **الاعتصام**، ص٢٦٦.
(٣٧) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، المقدمة، دار الشعب، ج٦، ص٤٣٩ وما بعدها
(٣٨) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، بيروت، ١٩٦٧م، ص٢٩٥، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م، ج٤، ص ١٣٢-١٣٣.
(٣٩) للمزيد عن نشأة التصوف، راجع: إبراهيم بسيوني، **نشأة التصوف الإسلامي**، دار المعارف، ١٩٩٨م، ص١١٠ وما بعدها.
(٤٠) محمد بن يوسف الكندي، الولاة والقضاة، تحقيق حسن أحمد محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص ٤٤٠، تقى الدين أحمد بن على المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار صادر، بيروت، ب.ت، ج١، ص١٧٣، محمود إسماعيل عبد الرازق، **سو سيولوجيا الفكر الإسلامي**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٠م، ج٢، ص ٨٣ وما بعدها.
(٤١) المقريزي، **الخطط**، ج١، ص٤٨٦.
(٤٢) عبد الوهاب الشعراني، **الطبقات الكبرى**، دار الفكر العربي، ب.ت، ج١، ص ١٣٠.
(٤٣) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، المطبعة الحيسينة، القاهرة، ١٩٥٧م، ج٤، ص ٦٥-٦٦، شمس الدين أبو العباس ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، ص١٠٥، ج٢، ص١٧-١٨.
(٤٤) أبو الفدا الحافظ ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١٢، ص ٢٧٣، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير**، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، ص ٥٩، المقريزي، **الخطط**، ج٢، ص٣٦٣.
(٤٥) عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار**، تحقيق كرم البستانى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ٣٧-٣٨.
(٤٦) **السيرة**، م١، ص ٢١.
(٤٧) **السيرة**، م١، ص ٢٢.
(٤٨) **السيرة**، م١ ص ٢٠.
(٤٩) القادر نوري، **سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦م، ص٤٣٨.
(٥٠) **السيرة**، م١ ص ٢٠-٢١.
(٥١) **السيرة**، م١، ص ٢٩-٣٣.
(٥٢) محمد الجوهرى، **علم الفلكلور**، دراسة المعتقدات الشعبية، دار المعارف، ١٩٨٠م، ج٢، ص٤٧-٤٨.
(٥٣) المقريزي، **الخطط**، جـ ٤، ص ٤١٥؛ على مبارك، **الخطط التوفيقية**، جـ٦، المطبعة الآميرية ببولاق، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص ٥٠.
(٥٤) **السيرة**، م١، ص٤٦.
(٥٥) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول**، ج١، ص ٤٠٣.
(٥٦) **السيرة**، م١، ص ص٥٥.
(٥٧) **السيرة**، م١، ص٥٥.
(٥٨) **السيرة**، م١، ص٧٠.
(٥٩) **السيرة**، م١، ص٦٢.
(٦٠) **السيرة**، م١، ص٦٩.
(٦١) **السيرة**، م١، ص ٥٥.
(٦٢) **السيرة**، م١، ص٨٩.
(٦٣) **السيرة**، ج١، ص ٩٨-١٣٥، ٢١٢، ٢٧٦-٣٠٠.
(٦٤) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٤٤٢، ابن تغرى بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٣١.
(٦٥) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٤٤٢، شهاب الدين أحمد النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد ضياء، الهيئة العامة، ١٩٩٢م، ج٢٩، ص ٣٣٦.
(٦٦) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص٤٣٩، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٣٣٥.
(٦٧) **السيرة**، م١، ص ١٤٢-١٤٤.
(٦٨) **السيرة**، م١، ص ٢٦٦.
(٦٩) **السيرة**، م١، ص ٣٢١-٣٢٢.
(٧٠) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص ١٧٥-١٧٦، ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، ص ٢٧٢.
(٧١) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص ٢٣٨-٢٣٩، المقريزي، **السلوك في معرفة دول الملوك**، ج ١، ق ٢، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٩م، ص ٥٤٧.
(٧٢) ابن العميد، **النهج السديد**، ج٢، ص ٤٥٧؛ المقريزي، **المقفى**، ج٣، ص ٧٥١.

(٧٣) ابن أيبك الدوادارى، **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء الثامن الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م، ج٨، ص ٢٢١؛ مجهول، **ترجمة الشيخ خضر**، ضمن Holt (P.M), An Early Source on Shaykh Khaḍir al-Mihrānī, ص ٣٧؛ النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٣٠، تحقيق د.نجيب فواز والدكتورة حكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٤٢.

(٧٤) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، ج٥، تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢١٨.

(٧٥) **السيرة**، م١، ص ٤٤-٤٥.

(٧٦) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب**، ج٥، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، دار الكتب المصرية، ١٩٧٥م، ص ١٥٦- ١٦٠، النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٩، ص٢٢٨.

(٧٧) شهاب الدين ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب**، ج٧، تحقيق عبد القادر الأرناؤط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩١م، ص ٣٠٤.

(٧٨) ابن واصل، ج٤، ص ٢٤٣، المقريزي، **السلوك** ج١، ص ٣٥٤، النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٩، ص١٥١.

(٧٩) سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٩، ٢٠١٠م، ج٢، ص٢٧٥-٢٨٣.

(٨٠) **السيرة**، م٢، ص٩٢٦- ٩٦٠.

(٨١) **السيرة**، م٢، ص ٩٨٢.

(٨٢) **السيرة**، م٢، ص ٩٨١-٩٨٤.

(٨٣) **السيرة**، م٢، ص ٩٨٤-٩٨٦.

(٨٤) ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٦٤.

(٨٥) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص٤٥٧-٤٥٨، ابن تغرى بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٧٠- ٣٧١، بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٣م، ص ٨.

(٨٦) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٦، ص ١٢٩-١٣٠.